

المحاضرة الثانية:

1- أهداف علم النفس النمو:

ممكن القول أن لسيكولوجية النمو هدفين أساسيين : أولهما الوصف الكامل والدقيق قدر الإمكان للعمليات النفسية عند الناس في مختلف أعمارهم واكتشاف خصائص التغيير الذي يطرأ على هذه العمليات في كل عمر ، وثانيهما : تفسير التغيرات العمرية (الزمنية) في السلوك أي اكتشاف العوامل والقوى والتغيرات التي تحدد هذه التغيرات ، ثم أضيفت أهداف أخرى تتصل بالرعاية والتحكم والتنبؤ ، أو باختصار التدخل في التغيرات السلوكية.

- وصف التغيرات السلوكية:

على الرغم من أن هدف الوصف هو أبسط أهداف العلم إلا أنه أكثرها أساسية ، فبدونه يعجز العلم عن التقدم إلى أهدافه الأخرى ، والوصف مهمته الجوهرية أن يحقق الباحث فهما أفضل للظاهرة موضع البحث ، ولذلك فالباحث في علم نفس النمو عليه أن يجيب أولاً على أسئلة هامة مثل: متى تبدأ عملية نفسية معينة في الظهور ؟ وما هي الخطوات التي تسير فيها سواء نحو التحسن أو التدهور؟ وكيف تؤلف مع غيرها من العمليات النفسية الأخرى أنماطاً معينة من النمو ؟ مثال ذلك أننا جميعاً نلاحظ تعلق الرضيع بأمه وان الأم تبادل طفلها هذا الشعور ، والسؤال هنا : متى يبدأ شعور التعلق في الظهور ؟ وما هي مراحل تطوره ؟ و هل الطفل المتعلق بأمه تعلقاً آمناً يكون أكثر قدرة على الاتصال بالغرباء أم أن هذه القدرة تكون أكبر لدى الطفل الأقل تعلقاً بأمه ؟ هذه وغيرها أسئلة من النوع الوصفي.

ويجاب عن هذه الأسئلة بالبحث العلمي الذي يعتمد على الملاحظة ، أي من خلال مشاهدة الأطفال والاستماع إليهم ، وتسجيل ملاحظتنا بدقة وموضوعية . ولا شك أن مما يعيننا على مزيد من الفهم أن ملاحظتنا الوصفية تتخذ في الأغلب صورة النمط أو المتوالية ، وحالما يستطيع الباحث أن يصف اتجاهات نمائية معينة ويحدد موضع الطفل أو المراهق أو الراشد فيها فإنه يمكنه الوصول إلى الأحكام الصحيحة حول معدل نموه ، وهكذا نجد أن هدف الوصف في علم نفس النمو يمر بمرحلتين أساسيتين : أولاً الوصف المفصل للحقائق النمائية ، وثانيهما ترتيب هذه الحقائق في اتجاهات أو أنماط وصفية ، وهذه الأنماط قد تكون متأنية في مرحلة معينة ، أو متتابعة عبر المراحل العمرية المختلفة.

- تفسير التغيرات السلوكية :

والهدف الثاني لعلم نفس النمو هو التعمق فيما وراء الأنماط السلوكية التي تقبل الملاحظة، والبحث عن أسباب حدوثها أي هدف التفسير ، والتفسير يعين الباحث على تعليل الظواهر موضع البحث من خلال الإجابة على سؤال لماذا ؟ بينما الوصف يجيب على السؤال: ماذا ؟ وكيف؟

ومن الأسئلة التفسيرية : لماذا يتخلف الطفل في المشي أو يكون أكثر طلاقة في الكلام ، أو أكثر قدرة على حل المشكلات المعقدة بتقدمة في العمر ؟ وإلى أي حد ترجع هذه التغيرات إلى " الفطرة" التي تشمل فيما تشمل الخصائص البيولوجية والعوامل الوراثية ونضج الجهاز العصبي ، أو إلى " الخبرة " أي التعلم واستثارة البيئة . فمثلاً إذا كان الأطفال المتقدمون في الكلام في عمر معين يختلفون وراثياً عن المتخلفين نسبياً فيه نستنتج من هذا أن معدل التغيير في اليسر اللغوي يعتمد ولو جزئياً على الوراثة ، أما إذا كشفت البحوث عن أن الأطفال المتقدمين في الكلام يلقون تشجيعاً أكثر على انجازهم اللغوي ويمارسون الكلام أكثر من غيرهم فإننا نستنتج أن التحسن في القدرة اللغوية الحادث مع التقدم في العمر يمكن ان يرجع جزئياً على الأقل إلى الزيادة في الاستثارة البيئية.

وفى الأغلب نجد ان من الواجب علينا لتفسير ظواهر النمو أن نستخدم المغارف المتراكمة في ميادين كثيرة أخرى من علم النفس وغيره من العلوم مثل نتائج البحوث في مجالات التعلم والإدراك والدافعية وعلم النفس الاجتماعي والوراثة وعلم وظائف الأعضاء والانثروبولوجيا.

- التدخل في التغيرات السلوكية :

والهدف الثالث من أهداف الدراسة العلمية لنمو السلوك الإنساني هو التدخل في التغييرات السلوكية سعياً للتحكم فيها حتى يمكن ضبطها وتوجيهها والتنبؤ بها .
ولا يمكن ان يصل العلم إلى تحقيق هذا الهدف إلا بعد وصف جيد لظواهره وتفسير دقيق صحيح لها من خلال تحديد العوامل المؤثرة فيها , لنفرض أن البحث العلمي أكد لنا ان التاريخ التربوي الخاطئ للطفل يؤدي بة إلى أن يصبح بطيئاً في عملة المدرسي, ثائراً متمرداً في علاقاته مع الأفراد , أن هذا التفسير يفيد في أغراض العلاج من خلال تصحيح نتائج الخبرات الخاطئة , والتدريب على مهارات التعامل مع الآخرين , وقد يتخذ ذلك صوراً عديدة لعل أهمها التربية التعويضية , والتعلم العلاجي.

2- المبادئ العامة وأهم مناهج البحث في علم النفس النمو

2-1- أهم القوانين والمبادئ العامة لنمو:

1 - النمو يتضمن تغيرات كمية و كيفية:

ويعني هذا أن النمو يتضمن وجهين من التغير إحداها يمثل الجانب البنائي او الكمي و الآخر يمثل الجانب الوظيفي او الكيفي. ومن الأمثلة التي تدل على نمو الكمي، نمو الأعضاء المختلفة و زيادة حجمها فمثلاً يزداد حجم الجهاز الهضمي إلا ان هذه الزيادة في الحجم يتبعها تغير في الوظيفة.

2 - النمو عملية مستمرة متدرجة و منتظمة:

إن النمو الإنساني السوي عملية دائمة متصلة منذ بدأ الإخصاب و الحمل حتى اكتمال النضج فإن كل مرحلة من مرحلة النمو تتوقف على ما قبلها و تؤثر فيما بعدها كما ان المرحلة السابقة تمهد للمرحلة اللاحقة و هذا يعني عدم وجود وقفات أو فجوات في عملية النمو العادي و لكن قد يكون هناك نمو كامن و نمو ظاهر فعلى سبيل المثال الأسنان التي تكونت في الشهر الرابع و الخامس تبدأ في ظهور في العام الأول.

3 - معدلات النمو غير ثابتة خلال المراحل المختلفة:

للنمو مظاهر مختلفة منها النمو الجسمي و العقلي و الإجتماعي و الإنفعالي و كلها مترابطة مع بعضها و مؤثرة في بعضها إلا ان معدلات النمو في إحداها لا يسير بنفس المعدل خلال المراحل التالية فمثلاً معدل النمو الجسمي خلال مرحلة ما قبل الميلاد معدل سريع جداً أكثر منه في اي مرحلة أخرى.

4- يخضع النمو لمبدأ الفروق الفردية:

يختلف الأفراد من حيث سرعة النمو كما وكيفا، فالفروق مبدأ واضح في النمو الإنساني و أشارت كثير من الدراسات التي تناولت الطول و الوزن عند الأطفال و جود فروق فردية في معدلات النضج حتى ان الكثير من الأطفال يدخلون التعليم الأساسي عند سن السادسة غير ناضجين لبداية القراءة و الكتابة ، و فهم هذا المبدأ في غاية الأهمية عند الآباء و المعلمين و الاخصائين الاجتماعيين لان الفشل في التعرف على هذه الفروق في معدلات النمو يمكن ان يكون مصدراً لسوء الفهم و الإرشاد الخاطئ.

5- النمو يسير من العام إلى الخاص:

يسير النمو من العام إلى الخاص من الكل إلى الجزء ، فيستجيب الفرد في بادئ الأمر استجابة عامة ثم تتفرغ هذه الاستجابة و تصبح أكثر دقة فمثلاً الطفل الصغير لكي يصل إلى شيء يأكله فانه يحرك كل جسمه في بادئ الأمر ثم اليدين ثم بيده واحدة.

6- النمو يسير من الأعلى إلى الأسفل و من الداخل إلى الخارج:

يقصد بذلك الأجزاء العليا تسبق السفلى حيث تنضج منطقة الرأس أولاً ثم عضلات الذراع فالصدر فعضلات البطن ثم القدمين ، أما اتجاه النمو من الداخل إلى الخارج فيعني نمو عضلات الكتف أولاً ثم الكوع ثم الرسغ ثم الأصابع.

2-2 - مناهج البحث في علم نفس النمو:

تعتبر المناهج و الطرق العلمية للبحث ضرورية لبناء أساس سليم لنمو العلم، و لقد تقدمت مناهج و طرق البحث في علم نفس النمو في مراحلها المتتابعة و أصبحت الآن أكثر علمية، و تهدف إلى الوصول إلى حقائق و قوانين و نظريات راسخة في علم نفس النمو.

ولا يوجد منهج واحد صالح لدراسة كل مظاهر النمو بل يختلف منهج الدراسة و طريقته حسب

الموضوع، لذلك من الضروري الإحاطة بأهم مناهج البحث في هذا العلم و هي :

1- المنهج التجريبي: يعتبر أدق المناهج و أفضلها و ذلك لسببين رئيسيين هما:

- أنه أقرب المناهج إلى الموضوعية عكس بعض المناهج التي تتصف بدرجة عالية من الذاتية.
- يستطيع الباحث الذي يتبع المنهج التجريبي السيطرة و التحكم في العوامل المختلفة التي يمكن ان تؤثر على الظاهرة السلوكية. و الباحث الذي يستخدم المنهج التجريبي لا يقتصر على مجرد وصف الظواهر التي تتناولها دراسته و إنما يدرس متغيرات هذه الظاهرة و يحدث في بعضها تغييرا مقصودا و يتحكم في متغيرات أخرى ليتوصل الى العلاقات السببية بين هذه المتغيرات.
وتسير الدراسة في هذا المنهج وفق التسلسل: ظاهرة، هدف، فروض، تجربة، نتائج، حقائق، قوانين نظرية.

2-المنهج الوصفي :

يتناول المنهج الوصفي الظواهر النفسية كالخوف، الغضب، القلق، الإنطوائية و التوتر، كما يتناول دراسة التاريخ التطوري لبعض مظاهر النمو في مختلف مجالاته، و تتم الدراسة الوصفية بطريقتين هما:
-الطريقة الطولية:

وفي هذه الطريقة يتبع الباحث الظاهرة النمائية عبر الزمن، فلو كان الباحث ينظر في النمو اللغوي لدى طفل من الميلاد إلى خمس سنوات، فإن عليه ملاحظة نموه اللغوي طوال هذه الفترة.
وتنطبق هذه الطريقة على عينات صغيرة جدا قد تصل إلى فرد واحد و تتطلب مزيدا من الوقت و الجهد و الصبر، لكن النتائج في الغالب يصعب تعميمها.
- الطريقة العرضية:

ويحاول الباحث استخدام هذه الطريقة توفيراً للوقت و الجهد، و ذلك من خلال تقسيم الفترة الزمنية المراد تتبع الظاهرة عبرها إلى فترات عمرية يحددها الباحث ثم يأخذ عينات كبيرة كل عينة منها تغطي فترة عمرية فرعية ثم يحسب المتوسط الحسابي لمعدل وجود الظاهرة في كل فئة ليصل في النهاية إلى استخراج متوسطات كل فئة عمرية من الفئات التي حددها الباحث لتمثل المرحلة الكلية المراد تتبع نمو الظاهرة عبرها.

و أخيراً ينتظر من الباحث أن يقدم أوصافاً دقيقة للظاهرة على شكل جداول النمو تصبح معايير للظاهرة المدروسة يمكن تطبيقها على أفراد آخرين، إضافة لذلك ينتظر من الباحث الوصفي أن يكشف عن المتغيرات أو العوامل ذات العلاقة بالظاهرة و نوعية العلاقات الوظيفية لهذه المتغيرات بالنسبة للظاهرة موضوع الدراسة.